تمهيد

بُعَيْد هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001 بدأنا نقلّب السؤال الذي تصاعد من الركام: "لماذا يكره الناس أمريكا؟" كنا مقتنعين بأن على أمريكا، إذا ما أرادت الرد على ذلك الحدث الرهيب بشكل صحيح، أن تُقر بأن هناك حاجة ماسة إلى فهم ونقاش جديدين حول دور أمريكا وعلاقاتها بباقي العالم. وما كدنا ننتهي من الكتابة حتى كانت أمريكا في حرب بأفغانستان. وجملة الأحداث اللاحقة جاءت تحاكي سلسلة الأسباب والمخاوف التي لخصناها وتناولناها في بحثنا.

ومع ذلك فإن موجة من الاجتياح تصاعدت في أمريكا وحول العالم مع شروع الرد الأمريكي في التمخض عن سياسة مصممة سلفاً قائمة على الاستخدام الاستباقي للقوة باسم الدفاع عن النفس والانخراط النشيط في بناء الديمقراطية. غير أن المعارضة في أمريكا أو في أي مكان آخر من العالم بقيت ملزمة بالاهتداء إلى اعتماد مسار بديل. وما أفضى بنا إلى تأليف هذا الكتاب إن هو إلا الوقوف على حقيقة تضاؤل فرص وضع جدول أعمال للتغيير على تنامي المعارضة ضجيجاً ووضوحاً.

وكلما زدنا متابعة للأحداث في أمريكا، زادت قناعتنا بوجود علة متزايدة التفاقم. ما نحاول تسليط الضوء عليه إن هو إلا وضع ثقافي خارج من رحم التاريخ، دائب على توفير قضايا وردود عبر التاريخ، معبر عنه ومتمثل في الإنتاج الثقافي للمجتمع الأمريكي، متجسد في صورة أمريكا الذاتية وتعريفها بوصفها أمة ودولة ـ وضع يجعل أي تغيير ولو أوَّلي شبه مستحيل. إن مشكلات العالم مع أمريكا تبدأ في أمريكا.

ونحن نرى أن جذر المشكلة متمثل بالذُّهان أو الهوس الأمريكي. صحيح أننا لا نستخدم هذه العبارة بمعناها التقني التحليلي النفسي الدقيق، إلا أننا نريد أن نوحي بوجود المعنى المدروس لوضع ثقافي خطير، لنوع من الاختلال والاضطراب اللذين يعاني منهما المجتمع الأمريكي من ألفه إلى يائه.

إن لما تفعله أمريكا بنفسها، لما تعجز أمريكا عن تحقيقه داخل مجتمعها وثقافتها، عواقب بالنسبة إلى الناس في كل مكان. غير أن حصول أي حوار عاقل وأي تغيير قابل للحياة مشروط بكشف النقاب عن المشكلة. لابد لنا من محاولة إبراز الهوس الثقافي المتمثل بحلم أمريكا على أنه كابوس عالمي.

يبدأ الحلم الأمريكي من تصور مركزي بالنسبة إلى الحياة الأمريكية. إن القول بأن أمريكا مختلفة. وما يترتب على هذا الافتراض شبه اللاشعوري المقبول على نطاق واسع هو أن أمريكا يتعذر إخضاعها للمعايير المطبقة على باقي العالم. إنها استثنائية. تلك نزعة ثقافية من صياغة التاريخ الأمريكي وسلسلة روايات ثقافية معينة مستخلصة من ذلك التاريخ. إنها روح قومية يجري التعبير عنها بالأسطورة. إنها نظرة إلى الشخصية القومية الأمريكية مدعمة بالقيم والوعي الأخلاقي المتجسدين في الأسطورة، نظرة ذات تأثير عميق في الخطاب السياسي للأمة. ومن هنا فإنها ترسم حدود أي جدل سياسي صحيح داخل أمريكا. ومما لا شك فيه أنها آية الضلال الثقافي الأخطر؛ أنها مصدر تهديد داهم للأمن، السلام والرفاه ليس فقط بالنسبة إلى الأمريكيين بل بالنسبة إلى الناس في كل مكان.

يتمثل كابوس العالم بواقع امتلاك أمريكا للقوة التي تملكها من

فرض عيوب ونواقص حلمها على واقع حياة الجميع. لقد تزايدت صيرورة مطاردة الحلم الأمريكي بديلاً من حث الخيال على الاهتمام بواقع معقد، نشوء فظاظة تدعي أنها هاجس إنساني وإخلاص لأنبل المثل الإنسانية. غير أن عواقبها الفعلية هي موت، معاناة، هوة متزايدة الاتساع بين الأغنياء والفقراء، تبديد مؤكد لمستقبل البشر، وبناء مقادير متنامية من الذرائع المسوِّغة للصراع بوصفها ما ينطوي عليه الغد من وعد.

وبوصفه صرحاً ثقافياً طاغياً، فاعلاً على الصعيدين الداخلي والخارجي، يتجذر الحلم الأمريكي في تربة المثيولوجيا الأمريكية. نقدم فيما يلي عشرة نواميس ناظمة لهذه المثيولوجيا التي نؤمن بأنها جذور الهوس الأمريكي: قوى ثقافية فاعلة لإبقاء أمريكا عاجزة عن مصارعة مشكلاتها، عن تقويم مدى تأثيرها في العالم أو الإحاطة بمستوى وطبيعة جملة المشكلات الفعلية التي تواجه أمريكا والعالم على نحو صحيح. ليست هذه نواميس ثابتة غير قابلة للتغيير؛ غير أنها تصلح، دون شك، أداة تحليل قوية. كل من النواميس يرتب عنقوداً من الآثار الثقافية التي تشل قدرة أمريكا على فهم قوتها الخاصة، تبقيها غير مسؤولة عن عواقب استخدامات قوتها. وهذه النواميس تعمل على طمأنة الأمريكيين وإقناعهم بأنهم شعب لطيف، قوةُ خَيِّر، في حين أن سياسة أمريكا، ممارساتها، انخراطاً وعزوفاً، دائبة على التمخض عن التأثيرات المعاكسة تماماً، عن تغذية مثل هذه التأثيرات وإدامتها.

ثمة تحليل لعدد من الأفلام السينمائية جعلناه محوراً لخطابنا. فهوليوود مصنع للأحلام. والأحلام التي يصنّعها أمريكية حتى النخاع. يتم إنتاجها بالجملة، ذات دوافع تجارية هادفة إلى ممارسة التأثير في

الحساسيات الأمريكية، استثارتها والتناغم معها. ذلك هو ما يجعلها قوة ثقافية ذات شأن في المجتمع الأمريكي، قطاعاً رياديا في الاقتصاد الأمريكي وقناة رئيسية من قنوات تفاعل أمريكا مع العالم. لو لم تكن الأفلام قادرة على التحدث مع أمريكا حديث القلب إلى القلب عبر تنوع أطياف المجتمع الأمريكي، وعبر الزمن، لما باتت ثقافة الشهرة والمشاهير بكليتها موجودة؛ ولما أصبحت السلسلة الطويلة من الفعاليات الاقتصادية المعتمدة عليها متوافرة. ليس مصنع الأحلام محصوراً بأمريكا، غير أنه دائب واقعياً على توظيف ما تعتقد أمريكا أنها كانَتْه، مازالت وستكون، وصولاً إلى جعل الثقافة والاقتصاد مدفوعين على نحوٍ متزايد بقوة الرغبة في زيادة التماهي مع الآفاق التي يتم إسقاطها على الفلم. وهذا هو ما يجعل الفلم أسلوباً صحيحاً ومقنعاً لضبط أي تحليل للثقافة الأمريكية، إضافة إلى أنه أحد أبعاد الثقافة الأمريكية المعروفة لدى الناس في كل مكان.

علينا أن نستنتج أن أمريكا ليست مختلفة، ليست استثنائية. إنها غير كاملة، ذات عيوب، ميالة إلى ارتكاب أخطاء منطوية على عواقب وخيمة، مقصودة كانت أم لا. والتغيير الحقيقي الصادق يعني الاستيقاظ من الحلم الأمريكي من أجل التصدي للكابوس العالمي، وليس ذلك أفقاً ميسراً أو مأمولاً. إلا أن من شأن الاعتقاد بأن مجرد التحلي بالأمل والتفاؤل والنزعة الإيجابية، دون إحداث تغيير عميق في المجتمع الأمريكي نفسه، يكفي، أن يكون غرقاً في بحر من الأوهام. فأمريكا ليست وحيدة في مشكلاتها، استثنائية في مصاعبها ومآزقها. قد يفضي إدراك حقيقة كونها جزءاً من نواقص عالم غير كامل وعيوبه إلى توفير إمكانية الاهتداء إلى أجوبة، إلى حلول جديدة للصراعات الناشبة بين

العديد من الأمم، الدول، الشعوب ووجهات النظر العالمية، التي تكون، جميعاً أيضاً، ذوات مصلحة راسخة في مستقبل إنساني أفضل ينعم بالسلم لبني البشر.

لدى تأليف هذا الكتاب أفدنا من نصائح وانتقادات قيِّمة صادرة عن حشد من أصدقائنا وزملائنا. نتوجه بالشكر خصوصاً إلى كل من سهيل عناية الله، ستيف فولر، رتشارد سلوتر، توني ستيفنسون، فكتوريا رزاق، جون ماكيانو، فيناي لال وجيم داتور. ثمة شكر خاص لجوردي سيرا على خبرته في مجال الأدب الساخر، وللطفي هيرمي على قيامه بتوفير خدمات لا تقدر بثمن على صعيد البحث عبر الإنترنت. مرة أخرى، تأثرنا كثيراً بتحرير دنكان هيث الحريص وصبره غير المحدود؛ بثقة جيرمي كوكس اللانهائي وإيمانه بنا. وكما في المرات السابقة فإن مريل وين ديفيس يسرها أن تشكر أمها على تحمل الإهمال الأمومي وبقدر هائل من البهجة إزاء مثل هذا الإهمال.

لندن ــ تموز/يوليو 2004

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

نواميس المثيولوجيا الأمريكية العشرة

في تشرين الأول/أكتوبر 2003 ذهب أهالي كاليفورنيا إلى صناديق الاقتراع لاستبدال حاكم الولاية الذي لم يكن قد سبق لهم أن انتخبوه سوى عام واحد ببطل الكمال الجسماني والأفلام السينمائية المثيرة المولود في النمسا آرنولد شفارتزنجر. كان الانتصار الانتخابي لنجم نجوم هوليود، وأيقونة الملصقات الزاخرة بالوعود لدى الحزب الجمهوري، أكبر من النصر الذي يتحقق لأي مرشح شعبوي. شكَّلَ الأمر صورة نابضة بالحياة لأمريكا، وتعليقاً بلغة الأفعال عليها. ثمة كان الحلم الأمريكي، النزعة الفردية، إضفاء الصفة الديمقراطية على كل شيء، عدم الثقة بأرباب السياسة، الاستياء من الحكم، دور بيوتات الأعمال العملاقة في المجتمع والسياسة، الجوانب المكشوفة والخفية للحرب الثقافية، الانقسام العنصري، الرغبة في الأبطال ومبدأ الشهرة في الدوَّامة نفسها معاً. وهذه كانت هي كاليفورنيا، مما جعل قيمة الاستمتاع بمجمل العملية هائلة.

لم يكن المرشح شفارتزنجر مسلحاً بأي خطة عمل سياسية لإخراج كاليفورنيا من أزمة الديون التي ترزح تحت وطأتها أو بأي تجربة ذات شأن في السياسة. أعلن المرشح أن الوقت لم يحن بعد للرد على الأسئلة ذات العلاقة بالتخطيط؛ ثمة ما يكفي من الزمن لذلك بعد توليه المنصب. أما الآن فما على الناخبين إلا أن يضعوا ثقتهم في آرني (تصغير آرنولد). وقد فعلوا. فما اختاروا أن يثقوا به وأن يصوتوا لصالحه لم يكن سوى سلطان الشهرة: شخصية آرنولد شفارتزنجر،

إحداثياته الثقافية وشهرته الراسخة، إذ أن بيانه الانتخابي كان متمثلاً بما ظهر فيه من أشرطة سينمائية. حملت حافلات حملته أسماء أفلامه: المتسابق لحافلة شفارتزنجر، الاستدعاء الشامل لحافلة الشخصيات المرموقة جداً، اللص للحافلات الناقلة لممثلي وسائل الإعلام الذين حطوا في عاصمة العالم الترفيهية بأعداد كبيرة من جميع زوايا الكرة الأرضية.

بلغ عدد المرشحين الذين شاركوا في انتخاب حاكم ولاية كاليفورنيا 135 مرشحاً في طوفان من المشاركة الديمقراطية. خاض بعض المرشحين حملتهم الانتخابية عبر المشاركة في برامج تلفزيونية شبيهة بعروض نماذج معبودي الجماهير. بين المرشحين كانت مرشحة تحمل اسم آنجلين، لم تشتهر إلا بكونها آنجلين. حققت شهرتها بخطف أبصار الجمهور عبر سلسلة من اللوحات التي ظهرت في لوس أنجليس كلها عارضة صوراً لها في ومع ملابسها الداخلية الوردية المثيرة المعروفة. لقد كانت، بعد أن باتت موضوعاً لعدد من الأطروحات الجامعية[1]، أيقونة شهرة، مستخدمة في الإعلانات الدعائية ومستضافة في اللقاءات التلفزيونية. وثمة كان، بالطبع، عدد كبير من الساسة المحترفين بين المرشحين، متراقصين مع حالمين صادقين بممارسة السياسة جنباً إلى جنب مع أعداد من نجوم العُريّ، الممثلين الثانويين وغيرهم من الأنماط الغريبة. وفي أعماق هذا كله كانت قضايا عميقة عن طبيعة الديمقراطية نفسها.

جرت الانتخابات في أعقاب أزمة الطاقة الأخطر التي يشهدها المكان الأكثر اعتماداً على الطاقة فوق الكرة الأرضية. جرت في أعقاب إخفاق عملية تحرير صناعة الطاقة، خُطَّة عولمة متطرفة دائبة على نشر

الخراب في أمريكا كما في سائر الأمكنة الأخرى من العالم. كانت أيضاً انتخابات زمن حرب. فأمريكا كانت في حرب على المخدرات، على الإيدز، على الجريمة، على التعليم الوطني؛ كما على الإرهاب في أعقاب 9/11 بإرسال الجيوش إلى أفغانستان والعراق. كان لأسلوب تغطية نفقات على الحروب تأثيره في المالية العامة، في الضرائب وفي الموارد المالية على جميع الأصعدة المحلية، القومية والدولية. كانت انتخابات أعقبت قوانين المواطنة (التشريعات التي تذيب عمل وكالات الاستخبارات وأجهزة تطبيق القانون المحلي في بوتقة واحدة وتُضفي عليها سلطات تجسس ومراقبة كاسحة جديدة لمتابعة "الإرهابيين" المشبوهين أو المحتملين)، في الولاية الأكثر تنوعاً والأشد تبايناً على الصعيد السكاني في الأمة. وفي أمة مؤلفة من المهاجرين برزت مسائل الهجرة، العمال غير المسجلين، الهجرة غير المشروعة والحدود المثقوبة بوصفها قضايا ساخنة. طالما دأبت كاليفورنيا على الإفادة من العمال المهاجرين العاملين في قطف الفاكهة، في القيام بجميع الأعمال الجسدية، في أعمال التنظيف والمسح ورعاية الأطفال مقابل أجور زهيدة. وهؤلاء العمال المهاجرون صاروا الآن يطرحون أسئلة جديدة: هل ينبغي منحهم اعترافاً وحقوقاً أم هم يشكلون عنصر تعطيل بل وحتى عامل تهديد للحياة السعيدة؟ قضايا كبرى تفوق قدرة الناخبين على الاهتمام، خصوصاً في ولاية تشكل موطن جزء كبير من طاقة وقواعد إنتاج المجمع العسكري ـ الصناعي الأمريكي.

إن كاليفورنيا هي الولاية الطليعية الأولى في أمريكا ـ الولاية المحدِّدة للتوجه، الولاية الحَكَم التي تحسم مستقبل أمريكا ككل. في الأيام العصيبة، بادر الأمريكيون إلى الرحيل والتوجه جماعياً نحو ولاية

الذهب التماساً لمستقبل أفضل. كانت كاليفورنيا المحطة الأخيرة في رحلة مصير الأمة القارّي المعلن. كانت ذهبية لأنها كانت ولاية الثراء لاندفاعة عام 1849 الذهبية. ما لبث الاندفاع عبر القارة نحو كنوزها أن أفضى إلى التدمير النهائي لقبائل السكان الأصليين للوسط الشاسع، والتخوم الغربية المتوحشة. كما أدى إلى إقحام الأمة في أبشع صراعاتها المميتة، في الحرب الأهلية، عبر فرض مسألة إلغاء العبودية على جميع المناطق المحررة على الطريق والساعية إلى اكتساب صفة الولاية. في سنوات الكساد الكبير المرعبة تركت عائلات مهاجرة مزارعها الخربة التي أصبحت أكواماً من الغبار وتوجهت نحو -كاليفورنيا أو الإفلاس- في مسيرة الهجرة التي وصفتها رواية جون شتاينبك عناقيد الغضب، كما في الفلم الفائز بجائزة الأوسكار الذي يحمل العنوان نفسه فيما بعد. من ولاية الذهب، من مقر قيادة الثقافة الشعبية الأمريكية، من موطن صناعات السينما والتلفزيون الترفيهية، انبثقت مادة التصدير الأمريكية الأعظم: رؤيتها لذاتها؛ القصة القومية المروية، المعاد صياغتها، المجدد تشكيلها، المُخْضَعة للتأمل والمحددة من جديد بصورة دائمة في سيل من الأفلام. في عام انتخاب حاكم الولاية كان ثمة حتى فلم باعث على التفاؤل ظهرت فيه كاليفورنيا مضطلعة بدورها المميز في تركيبة الأمة. ففلم بسكوت البحر كان سرداً جديداً للتاريخ، بما فيه مونتاج روائي لموضوعات حقبة الكساد، مشحوناً بروح الحلم الأمريكي وبتصنيع الشهرة، مفعماً بتوترات أمة ذات شاطئين، ملمحاً إلى الرحمة ولكنه تجريبي فيما يخص أي برنامج سياسي، محافظ أو جذري. كان الفلم قطعة فنية عاكسة لشخصية أمريكا القومية. هل كان الرئيس بوش يعلن فلسفته الخاصة أم يقتبس من فلم بسكوت البحر في خطاب حال

الاتحاد لعام 2004 حين أشار إلى أمة قائمة على مبدأ "فرصة ثانية" ـ تلك اللازمة المتكررة في نص الفلم؟

قد تشي كاليفورنيا بلمحة عن المستقبل ولكنها ليست أمريكا كلها، كما أن هذه لم تكن انتخابات قومية. كانت انتخابات على مستوى الولايات، محكومة بتشريعات الولاية، قضية محلية. كان انتخاب الإعادة ضرورياً لأن بنداً ملغزاً غير مستخدم من قبل في دستور الولاية يوفر إمكانية إلغاء ولاية أي رسمي منتخب، وإجباره على التماس تفويض جديد من الناخبين إذا ما تحداه عدد كاف من المواطنين. يتأرجح الأمر، إذن، بين ضفتي صدع قديم في السياسة الأمريكية: صدع التوتر القائم بين النزعة الاتحادية، وهي الصيغة القومية المرجعية، من جهة، والنزعة المحلية، نزعة تميز وحقوق الولايات الخمسين، من جهة ثانية. ليست كاليفورنيا، رغم كل مزاعمها وإغراءاتها، الصورة كلها؛ ليست إلا جزءاً، ولو لم يكن مايكروكوزمياً، من آلة التعصب. تبقى ثنائية التركيز بين الدولة الاتحادية من جهة والولايات من الجهة المقابلة متأصلة في طبيعة أمريكا. إنها شبح قديم يشهد انبعاثاً وإحياءً جديداً في الخطاب السياسي والتخطيط الأمريكي. هل هي الرد على الحرب الثقافية التي تمزق أمريكا بهذا القدر من العمق والشراسة؟ أم أن تسوية مشكلة زواج المثليين ـ بين أمور أخرى في تلك الحرب ـ على أساس الولاية هي مقدمة، كما علَّمنا التاريخ، لصراع هائل سيتعين حله لاحقاً عبر إعادة تحديد معالم طبيعة ورسالة خطاب أمريكا؟ إن من شأن معاينة اللوحة أن تتيح فرصة رؤية انعكاسات هواجس أمريكا كلها.

خاض سكوت مادنيك وكلي كيمبل الانتخاب بوصفهما من مرشحي حزب بيرة السعدان. لم يخفيا حقيقة أن ترشيحهما لم يكن إلا حيلة

تجارية استراتيجية لترويج بضاعتهما: بيرة السعدان. وقد تحدث مادنيك إلى مخرجي الفلم التلفزيوني الوثائقي حاكم الولاية: شفارتزنجر قائلاً: -إذا استطاع شابان من مروجي بضاعة إحدى شركات البيرة أن يترشحا لشغل منصب حاكم خامس أكبر اقتصادات العالم، فإن هذه العملية قد تعطلت وبات من الأفضل إصلاحها[2].

انتخاب حاكم الولاية يشكل ولا يشكل في الوقت نفسه استفتاء حول طبيعة أمريكا. فالصعود السياسي للـ"غوفرناتور" كما بات الحاكم شفارتزنجر يُعْرَف، جزء من الطابع الإشكالي لأمريكا. ما يعنيه ذلك بالنسبة إلى المستقبل يهم المصالح الحيوية ليس فقط للأمريكيين بل لسائر الناس في كل مكان. فاليوم نجد أمريكا منخرطة في عملية بناء ديمقراطية استباقية في أكثر بقاع العالم سخونة لضمان ترسيخ رؤيتها لمستقبل كوكب الأرض. فطريقة فهم الديمقراطية وتطبيقها في الولايات المتحدة يتعذر عزلها عن، أو تجاهلها من قبل، أي شخص تهمه كيفية فهم جهود بناء الدولة هذه وتوظيفها في الخارج. تدور الديمقراطية الأمريكية حول السياسة بأكثر معانيها تعميماً: إنها عملية متشكلة في إطار أفكار وثقافة أمة بعينها، مصاغة بتاريخها، مقيدة ومعبر عنها بأساطيرها وتقاليدها وصيغها الطقسية. حتى إذا سبق لها أن فعلت فإن أمريكا لم تعد قط تقف عند حدودها الخاصة. وسواء بفضل تدخلاتها المباشرة أم من خلال نشر أفكارها ومنتوجاتها الثقافية، نجحت أمريكا منذ زمن بعيد في إلقاء ظلها على العالم.

بمعنى من المعاني، لسنا جميعاً إلا من مواطني أمريكا. ومن ليسوا أمريكيين ليسوا مخيَّرين في هذا؛ إنه ضرورة. فأمريكا هي القوة المفرطة الوحيدة؛ إنها حضور كوكبي وواقع كوكبي، حقيقة حاسمة تقوم

بصياغة نمط حياة كل شخص على كوكب الأرض سواء أسَلَّم بذلك وفهمه أم لا. ومن أجل التأثير في شرط حيواتنا بوصفنا من غير الأمريكيين يتعين علينا جميعاً أن نتعلم كيف ننخرط في، ونتفاوض مع، جملة مشكلات أمريكا من منطلقات أمريكية. هذا هو الواقع، ليس خطأ من جانب أمريكا بالضرورة بل نتيجة القوة، معنى الإمبراطورية. دأبت أمريكا على جعل مرجعياتها كوكبية. وهو أمر طبيعي بالنسبة إلى أمريكا، وكل ما يُطلب أن ينبغي الاعتراف به، هو كل ما يدركه شعبه. وهكذا فإن مشكلات العالم مع أمريكا تبدأ في أمريكا بوصفها مشكلات الذات الأمريكية، فهم الذات، النظرة إلى العالم، التاريخ والرؤية المستقبلية.

في عملنا السابق والتكميلي لماذا يكره الناس أمريكا؟ قمنا بمعاينة صورة أمريكا في أذهان من هم في الخارج، في مخيلات مواطني كوكب الأرض من غير الأمريكيين. أما في كتاب حلم أمريكا كابوس للعالم فنقوم بتسليط الضوء على تصور أمريكا لأمريكا. مازالت هذه نظرة أناس من الخارج ـ يتعذر أن تكون خلاف ذلك. غير أن من شأن معاينة كهذه أن تنطوي على ميزة معينة. ليست الميزة عزلة هادئة ـ فأمريكا أقرب وأكثر اندماجاً بالحياة في كل مكان بما يجعل مثل تلك العزلة متعذرة. والاقتناع تحديداً بأن أمريكا تفعل لنفسها ما تفعله لباقي العالم ـ بأن ما يحدث في أمريكا يجد له أصداء عبر أرجاء كوكب الأرض ـ هو الذي نسعى إلى كشف النقاب عنه وإلى جعله برنامجاً للمناقشة. فالحقيقة البسيطة هي أن تغيير شروط حيواتنا بوصفنا من غير الأمريكيين يرتب علينا جميعاً أن ننخرط في الخطاب الأمريكي. من غير الممكن رفض أمريكا، تجنبها أو إهمالها. ما مِن قضية سوى قضية

التعايش مع أمريكا؛ يتعين على المسألة أن تتركز على الاهتداء إلى التعايش السلمي مع أمريكا. من غير الممكن حدوث تغيير أحادي الجانب. إذا كان التغيير ضرورياً، فلابد من التفاوض بأنه في ظل حالة من التوافق في أمريكا كما في كل مكان آخر من العالم. ونظرتنا ملتزمة بالاهتداء إلى طرق سلمية منقذة للأرواح ومطمئنة مفضية إلى الأمام. إننا نستهدف فتح جبهة ثانية ـ خلف التسليم المضمر بالمواقف المتطرفة الخبيثة من جميع الجوانب ـ لاشتباك حواري بناء. سبق لوالت ويتمان أن سمع أمريكا وهي تغني بكل تنوعها، فيما كل فرد كان يتلو ما يخصه هو كفرد ولا أحد سواه. ونحن نرنو إلى أمريكا لنساعدها على سماع العالم وهو يغني بالطريقة ذاتها، بحثاً عن الصوت، عن اللغة المناسبة لمناقشة كيف ولماذا أضحت الأغاني متنافرة وكيف نهتدي إلى حل مشكلات النشاز المتبادل.

إن الانخراط البنّاء القائم على الإصغاء والحوار هو بالتحديد ما ظلت أمريكا تفتقر إليه على نحو فاضح. وجزء كبير من مسؤولية ذلك يقع دون أي لبس على عاتق الرئيس جورج دبليو. بوش. وكما أشار عدد كبير من المعلقين والكتاب، فإن سياسته الخارجية قائمة على أفكار صيغت من جانب مركز الأبحاث العائد للمحافظين الجدد الكائن في واشنطن والمعروف باسم مشروع القرن الأمريكي الجديد(PNAC). ومركز البناك (PNAC) هذا أسسه سنة 1997 نائب رئيس الجمهورية ديك تشيني، وزير الدفاع دونالد رمسفلد، نائب وزير الدفاع بول وولفوفيتز، ورئيس مجلس تخطيط الدفاع رتشارد بيرل مع آخرين. إن خطة المركز المعلنة صراحة هي إقامة إمبراطورية أمريكية كوكبية وإخضاع جميع أمم العالم ودوله لمشيئتها.

تعود جذور المشروع إلى ما قبل ذلك التاريخ بكثير إذ تمتد إلى ما تمخض عنه سقوط جدار برلين من عواقب. بادر ديك تشيني، الذي كان وزيراً للدفاع في ذلك الوقت، إلى حشد الجماعة التي كانت برئاسة بول وولفوفيتز للتفكير بالسياسة الخارجية الأمريكية في عالم ما بعد الحرب الباردة. سارع كولن باول، وقد كان رئيساً للأركان المشتركة إلى إطلاق فكرة منافسة (أكثر اعتدالاً على الصعيد الإيديولوجي؟). يقوم نيكولاس ليمان بوصف ما جرى بعد ذلك قائلاً:

انشغل الجميع أشهراً بإيجازٍ عُرف باسم "إيجاز خمسة وواحد وعشرين" بإحساس كان يشي بأن المطروح للنقاش تمثل بمصير شكل عالم ما بعد الحرب الباردة. حين وصل وولفوفيتز أولاً، إلا أن إيجازه دام أطول من الساعة المخصصة بكثير، ولم يبادر تشيني (ذلك الصقر الذي ربما كان مستمتعاً بما كان يسمعه) إلى إلزام المتحدث بالوقت، لم يتسن لباول فرصة تقديم رؤيته البديلة لمستقبل الولايات المتحدة في العالم إلا بعد أسبوعين اثنين. وفيما بعد قام تشيني برفع تقريره الموجز إلى الرئيس بوش]الأب [مستخدماً مواد مأخوذة في المقام الأول من وولفوفيتز، فبادر بوش إلى إعداد خطابه الرئيسي حول السياسة الخارجية. إلا أنه ألقى الخطاب في الثاني من آب/أغسطس 1990يوم قيام العراق بغزو الكويت فلم يلفت نظر أحد[3].

جاءت إدارة كلنتون بعد ذلك وكان لابد للمشروع من أن يتعرض للتجميد. غير أن مجيء بوش آخر هو جورج دبليو إلى البيت الأبيض ما لبث أن أعاد المحافظين الجدد إلى الحلبة ليهتدوا إلى فرصتهم لدى قيام شبح 9/11 بالتحليق فوق أمريكا. وحين أقدم الرئيس بوش على إطلاق وثيقته المعروفة "استراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة

الأمريكية"، جاءت العملية ترجمة إيديولوجية للسياسات والخطط التي يدعو إلى مناصرتها مشروع القرن الأمريكي الجديد (PNAC).

والموقف الإيديولوجي للمشروع موصوف بوضوح في ورقة الخطة التي يكثر الاقتباس منها وهي بعنوان "إعادة بناء دفاعات أمريكا: استراتيجية، قوات وموارد لقرن جديد" وقد نُشرت في أيلول/سبتمبر 2000[4]. يعلن المشروع أن "الولايات المتحدة لا تواجه اليوم أي منافس عالمي. ويتعين على استراتيجية أمريكا الموسعة أن تستهدف الحفاظ على وضعها المتفوق وإطالة أمده إلى أبعد مدى ممكن في المستقبل". ومن شأن هذا أن يلزم أمريكا بتحديث جيشها، بإدخال الأسلحة إلى الفضاء، بزيادة الإنفاق الدفاعي وبالتحكم بـ "المشاعات الدولية" لفضاء المعرفة. و"مهمات" الجيش الأمريكي "الجوهرية" الأربع تلزمه بالدفاع عن الوطن الأمريكي؛ بخوض وكسب حروب مسارح رئيسية متعددة متزامنة كسباً حاسماً؛ بأداء الواجبات الأمنية "الشُّرَطية" المرتبطة بصياغة إطار البيئة الأمنية في أقاليم حساسة؛ وبتحويل القوات الأمريكية لتمكينها من استغلال "الثورة في الشؤون العسكرية". لعل من الصعب الاهتداء إلى إعلان أكثر وضوحاً لميثاق السلام الأمريكي، للباكس أمريكانا.

ثمة فريق من الرابحين وآخر من الخاسرين بالنسبة إلى استراتيجية المحافظين الجدد العدوانية العسكرية. إن كاتباً ورئيس تحرير موقع جذري لكشف الحقيقة على شبكة الإنترنت يدعى وليم رفرز بيت يلخص العواقب بالعبارات التالية:

سينال متعاقدو الدفاع الذين يلتهمون الموارد الضريبية الأمريكية حصصاً دسمة ثمناً لتسليح هذه الإمبراطورية الأمريكية الجديدة. ستسارع الشركات التي تحتكر وسائل نشر الأخبار إلى بيع هذه الحرب

الأبدية بربح مع مبادرة جمهور المتفرجين إلى عبور مجالات الفضائيات لدى توفر مشاهد المعارك القتالية الجديرة بالعرض. أولئك الذين يؤمنون بأن الدفاع عن إسرائيل مشروط بالإجهاز على أي معتد ممكن في المنطقة، ممن يعملون في الإدارة، سوف يرون أحلامهم متحققة. وفرسان مشروع القرن الأمريكي الجديد الحالمون بسلام أمريكي كوكبي قائم على قوة السلاح سيجدون مخططاتهم متكشفة. ومن خلال ذلك كله سيصبح المتحكمون بصناديق الأموال في منظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولي قادرين على فرض شروط مالية على كوكب الأرض كله...

ستكون ثمة تأثيرات جانبية عكسية. فأمريكيو ذهنية الحصار العاديون الذين يعانون جراء الاختناق خلف باحات الألواح البلاستيكية وكمامات الغاز سيزيدون أضعافاً لدى تمخض أعمالنا العدوانية عن جلب هجمات إرهابية جديدة ضد الوطن. وهذه الهجمات ستتطلب تطبيق قانون المواطن الثاني الذي صيغ مؤخراً، تدعيماً للقانون السابق المتمتع بأنياب أكثر حدة على نحو عميق. ستغرب شمس الدستور وشرعة الحقوق. سيجري تدمير الاقتصاد الأمريكي تحت وطأة الحاجة إلى المزيد من الإنفاق الدفاعي، وتكاليف الواجبات الأمنية -الشُّرطية- في العراق، أفغانستان وغيرهما من الأمكنة. حلفاء سابقون سينقلبون علينا... فمع قيام النسر بنشر جناحيه، لن يلبث خطابنا نحن والتصدي له أن يصبح أكثر سخونة وأشد خطراً. من الطبيعي أن أعداداً كبيرة من الناس سيموتون. سيموتون من الحرب وجراء العوز، من المجاعة وبسبب الأمراض. على المستوى الداخلي سيتعرض النسيج الاجتماعي إلى التمزق على نحو من شأنه أن يجعل كوابيس إدمان المخدرات، التشرد

والإيدز الريغانية تبدو مدجنة وأليفة بالمقارنة. هذا هو الثمن الذي يتعين دفعه للحصول على الإمبراطورية، وفرسان مشروع القرن الأمريكي الجديد المتحكمون الآن بمصير أمريكا ومستقبلها شديدو التوق واللهفة لدفعه[5].

ولكن هل "معشر مشروع القرن الأمريكي الجديد"، المحافظون الجدد من الجمهوريين، هم وحدهم التواقون على نحو مسعور إلى إطلاق موجة جديدة ومحمومة من النزعة الإمبريالية الأمريكية؟ هل الديمقراطيون، والحزب الديمقراطي، أكثر لُطْفاً، أكثر إنسانية، وأقل حرصاً على تعزيز النزعة الإمبريالية وعلى بناء نوع من الإمبراطورية؟ هل من شأن أمريكا أن تكون شديدة الاختلاف في ظل إدارة ديمقراطية؟

إن النظير الديمقراطي لمشروع القرن الأمريكي الجديد (PNAC) هو معهد التخطيط التقدمي (PPI)، أحد أذرعة مجلس القيادة الديمقراطية، وهو يضم اللاعبين الرئيسيين في الحزب الديمقراطي. رداً على بيان المحافظين الجدد بادر "الديمقراطيون الجدد" إلى إصدار وثيقتهم السياسية الخاصة تحت عنوان "الأممية التقدمية: استراتيجية أمن قومي ديمقراطية". وتماماً مثلما كان خطاب الرئيس جورج دبليو. بوش صدى لموقف مشروع البناك (PNAC)الإيديولوجي في استراتيجيته الخاصة بالسياسة الخارجية، قام المرشح الديمقراطي الرئاسي لعام 2004، السيناتور جون كيري، بعكس أفكار الديمقراطيين الجدد في كتاب حَمْلَته: دعوة إلى الخدمة: رؤيتي لأمريكا أفضل[6].

يعيد بيان معهد البي. بي. آي (PPI) "تأكيد التزام الحزب الديمقراطي بالأممية التقدمية ـ بعقيدة أن أفضل سبل دفاع أمريكا عن نفسها هو بناء عالم آمن للحرية والديمقراطية الفرديتين". ومن

الطبيعي، إذن، بالنسبة إلى الديمقراطيين أن "يدعموا الاستخدام الجريء للقوة الأمريكية "الأمر" المتجذر في تقليد الأممية القوية لدى الحزب. "وتشير الوثيقة إلى أن الديمقراطيين ليسوا على الإطلاق من أولئك الذين" يعارضون استخدام القوة ويدعون إلى تقليص الموارد اللازمة لإبقاء جيشنا قوياً. "بدلاً من ذلك،" سيحافظون على أكثر جيوش العالم قدرة وتقدماً تكنولوجياً دونما أي تردد في استخدامه دفاعاً عن مصالحنا في أي مكان من العالم؛ "وهم يؤمنون بأن" على أمريكا أن تستخدم قوتها التي لا نظير لها للدفاع عن بلدنا ولصياغة العالم الذي تسوده قيم الديمقراطية الليبرالية بازدياد مطرد" وسوف يعملون في سبيل" التوسيع التدريجي لدائرة الأنظمة الديمقراطية القائمة على اقتصاد السوق. "وهذه الاستراتيجية العسكريتارية التعاونية من شأنها، بنظرهم، أن تجعل "الأمريكيين أكثر أمناً مقارنة بسياسة الجمهوريين الأحادية".

أليس هناك نوع من التقاطع، من المشاركة على صعيد النظرة الأساسية فيما بين منظوري المحافظين الجدد والديمقراطيين الجدد خلف ستار خطاب النزعة التعددية الذي يدغدغ مشاعر باقي العالم بين الحين والآخر؟ هل الفروق هي فروق في الأسلوب أم في الجوهر على صعيد العواقب التي ستتمخض عنها بالنسبة إلى أمريكا، أو حتى بالنسبة إلى باقي العلم في الحقيقة؟ لا يُقْدم الديمقراطيون على تحدي مفهوم التفوق الأمريكي المطلق و"طيف الهيمنة الكامل" لدى المحافظين الجدد؛ وليسوا شديدي القلق إزاء سياسة إدارة بوش القائمة على "الضربات الاستباقية" أو "تغيير الأنظمة". لك هو السبب الذي دعا الديمقراطيين، كما يقر بيانهم صراحة، إلى تأييد الحربين ضد

أفغانستان والعراق دون تردد. يضاف إلى ذلك أنهم حتى يدعمون خطط الرئيس بوش الرامية إلى "إعادة إخضاع أمريكا اللاتينية للقيادة الأمريكية" عبر تعطيل الديمقراطية في فنزويلا.

تثير الفقرة الافتتاحية لوثيقة "استراتيجية أمن قومي ديمقراطية" قدراً استثنائياً من الاهتمام، إذ تقول:

بوصفنا ديمقراطيين، نحن فخورون بتقاليد حزبنا المتمثلة بالنزعة الأممية المتشددة وبسجله الحافل بالدفاع عن أمريكا. فرؤساء الجمهورية وودرو وِلْسُن، فرانكلين دي. روزفلت وهاري ترومان قادوا الولايات المتحدة إلى النصر في حربين عالميتين وصمموا مؤسسات ما بعد الحرب الدولية التي ظلت حجر زاوية الأمن والازدهار الكوكبيين منذ ذلك الوقت. قام الرئيس ترومان باجتراح تحالفات ديمقراطية مثل الناتو NATO ما لبثت أن انتصرت في الحرب الباردة. وقد نجح الرئيس كندي في تلخيص التزام أمريكا بـ "بقاء الحرية ونجاحها". أما جيمي كارتر فلم يتردد في وضع مسألة الدفاع عن حقوق الإنسان في صدارة سياستنا الخارجية. ثم جاء بل كلنتون ليتولى قيادة عملية بناء أوربا موحدة، حرة ومسالمة داخل شراكة جديدة مع روسيا لما بعد الحرب الباردة. إن أسماء رجالات الدولة الديمقراطيين هؤلاء تثير فيضاً من الإعجاب والاحترام في سائر أرجاء العالم[7].

إنه بيان تقليدي لنظرة أمريكا إلى التاريخ. وهو نوع خاص جداً من أنواع التاريخ، ضيق التركيز وقاصر على التسليم بما استندت إليه هذه "الانتصارات" وبمدى تأثرها بشؤون وشجون شعوب ودول أخرى. وكما سارع الصحافي البريطاني جون بلجر إلى الإشارة فإن

"الديمقـراطيين الجـدد يتـحـدرون من تقـاليـد ليـبـراليـة دأبت على بناء الإمبراطوريات والدفاع عنها بوصفها مشروعات " أخلاقية"[8].

ليست أحجية التأرجح بين الأسلوب والجوهر جديدة، بل تعود إلى التحاق أمريكا المكشوف بالموكب الإمبراطوري. بدأت الرسالة الإمبريالية أولاً مع تيودور روزفلت وحاشيته المحافظة. فالتسويغات الإيديولوجية للإمبراطورية، تعبيراً عن الولاء للإمبراطورية البريطانية وتكيفاً معها، صيغت على نطاق واسع قبل أن يصبح الجمهوري روزفلت الرئيس السادس والعشرين للولايات المتحدة في 1901. كانت الإمبراطورية حركة التوسيع المنطقية للحدود الأمريكية وصولاً إلى مستوى كوكبي. كانت هي التطبيق الفعلي لحبكة "حياة الاستنفار" الحدودية، تلك الحبكة الجوهرية المتوِّجة لفكرة بقاء الأصلح في سبيل إبقاء أمريكا مفعمة بالحياة وممسكة بزمام السيطرة. ولذا فإنها كانت عقيدة أحادية، عنصرية داروينية ـ اجتماعية منفتحة على العدوان. إن رؤية الإمبراطورية هذه جوبهت بالتحدي من جانب الديمقراطي وودرو ولسن، الرئيس الثامن والعشرين (1913 - 1921)، المخلَّد بوصفه مؤسس عصبة الأمم. وفي حقيقة الأمر فإن ولسن الذي أعيد انتخابه أملاً في إبقاء أمريكا خارج خنادق أوربا حيث معارك الحرب العالمية الأولى دائرة بشدة هو الذي أسس لتقليد جر أمريكا إلى الحرب الديمقراطي الجليل. والعبارة الدارجة تبقى، بالطبع متمثلة بـ "الديمقراطيون يشعلون الحروب، والجمهوريون يطفئونها". كان ولسن، وهو النصير الصادق والمخلص لفكرة الاستثنائية الأمريكية، يرى الأمة والدولة مسؤولتين مسؤولية فريدة عن تحقيق "سلام العالم النهائي". وجملة الأسس الفكرية والخطابية الداعمة لأي سياسة خارجية أمريكية قائمة على

التدخل واردة في رسالته الحربية الموجهة إلى الكونغرس في نيسان/أبريل 1917. فهدف أمريكا من الحرب كان يتجاوز مجرد إلحاق الهزيمة بالعدوان الألماني: "لابد للعالم من أن يغدو آمناً للديمقراطية". يتعين على أمريكا أن تقاتل "في سبيل حقوق وحريات الدول الصغيرة "في سبيل السيادة الكونية الشاملة للحق عبر مثل هذه الجوقة من الشعوب الحرة التي ستنجح في جلب السلام والأمن لجميع الأمم والدول وجعل العالم نفسه حراً أخيراً". من شأن إمعان النظر في الصياغة الدقيقة لفلسفة ولسن أن يبين أنه كان يرى أن الديمقراطية تخص الدول الأوربية دون غيرها، وأنه كان يشارك في الاعتقاد السائد القائل إن الأعراق الأخرى مفتقرة إلى كل من الحضارة والقابلية اللازمتين للديمقراطية مما يحول دون المبادرة إلى تمكين "جميع الشعوب" من امتلاك فرصة التمتع بحق "تقرير المصير". لقد جاء رده الرافض على الوفد الياباني في مؤتمر فيرساي الذي أنهى الحرب العالمية الأولى، حين طالب هذا الوفد بإضافة مادة تعترف بمبدأ المساواة بين الأعراق والأمم، تمهيداً للآلية التي ما لبثت أن أدت فيما بعد إلى إقحام أمريكا في الحرب العالمية الثانية.

على صعيدي الممارسة والتأثير، تعتمد أمريكا قطبين بديلين للمزاعم الإمبريالية، يمكنهما، كلاهما، أن يحتلا مكانيهما في خطاب أي دعوة "أخلاقية". فرؤية روزفلت العسكرياتية للإمبريالية كانت:

> مدعومة بما ليس أكثر جوهرية من فكرة أن القدر المعلن للولايات المتحدة تمثل بحكم الأمريكيين اللاتين وآسيويي الشرق الأدنى عرقياً. ثم جاء ولسن ليضيف إلى ذلك أفكاره الخاصة المثالية المفرطة، العاطفية واللاتاريخية

الزاعمة بأن ما يجب البحث عنه تمثل بديمقراطية عالمية قائمة على النموذج الأمريكي وخاضعة لقيادة الولايات المتحدة. لقد كان ذلك مشروعاً سياسياً لا يقل طموحاً وتبنياً حماسياً من حلم الشيوعية العالمية الذي أطلقه في الوقت نفسه تقريباً قادة الثورة البلشفية[9].

يرى وليم بفاف أن أمريكا "مازالت أسيرة سحر الرئيس الكاهن المصاب بجنون العظمة والمسكون بالصلاح الذاتي (ولسن) الذي أضفى على الأمة الأمريكية تلك القناعة التجديفية الباطلة القائلة بأنها (الأمة الأمريكية)، مثله هو نفسه، ما خُلقتْ من قبل الرب إلا من أجل "هداية أمم العالم وإرشادها إلى كيفية السير في طريق الحرية"[10].

ليست الإيديولوجيا إلا واحداً من عناصر التأثير الأمريكي في العالم. فالإمبراطورية تستلزم أيضاً جملة البنى والسيرورات اللازمة لممارسة السيطرة وضمان دوامها. عدد من رؤساء الجمهورية الديمقراطيين المتعاقبين أدوا أدوارهم في إرساء أسس صرح الإمبراطورية الأمريكية. كان فرانكلن دي. روزفلت هو الذي حوّل أطروحة الحرب الخطابية إلى بلاغة اجتماعية طاغية ما لبثت أن باتت هوس حرب شاملة دائماً. فبرنامجه المعروف باسم الصفقة الجديدة، وهو الذي جاء رداً على مجزرة الكساد الكبير الاجتماعية المرعبة، كان يرى الجيش بوصفه المؤسسة النموذجية الجديرة بالتقليد على صعيد بناء أنماط جديدة من التعاون والتنسيق من أجل معالجة جملة مشكلات المجتمع. لقد كان البرنامج الرحم الذي خرج منه المجمع العسكري ـ الصناعي. إن كوكبة من المنظمات والبرامج بادرت إلى ترسيخ علاقات متينة جديدة بين الحكومة، العمال وأهل الخبرة لقيادة عمليات تعبئة

جماهير الأمة بدقة عسكرية في سبيل مكافحة الفقر ودفع عجلة إعادة الإحياء إلى الأمام. ما لبثت العملية أن تمخضت عن تجهيز الأمة وإعدادها لخوض حرب شاملة بعد أن أدى حدث بيرل هاربر إلى إقحام أمريكا في أتون الحرب العالمية الثانية. لقد كان روزفلت هو الذي وضع توقيعه على مشروع البحوث السرية الخاصة بحرب مؤلَّله شاملة آخر المطاف: مشروع مانهاتن. أما هاري اس. ترومان فقد كان الرئيس الذي أصبح الزعيم العالمي الوحيد الذي أجاز استخدام الأسلحة النووية. وبوصفه وريث عملية تعبئة الحرب العالمية الثانية الجماهيرية كان ترومان هو الذي بدأ بنقل البلاد إلى حالة دولة أمن قومي حين تبنى منطق الانتقال من الحرب العالمية إلى الحرب الباردة، حيث أصبح هوسُ التهديد والخطر شرطَ الوجود القومي وفقاً لنصيحة السيناتور آرثر فاندنبرغ الموجهة إلى ترومان من أجل "زرع الرعب الجهنمي في قلوب أبناء الشعب الأمريكي". كان جون إف. كندي أول من أدخل أمريكا في الحرب بفيتنام. وكان خلفه لندون جونسون هو الذي شهد على تعرض التزامه بالمجتمع العظيم الجذري للاستهلاك والتبديد جراء منطق النزعة العسكرية الأمريكية التي ما فتئت أن أفضت إلى هلاك نحو ثلاثة ملايين نسمة في الهند الصينية. وعلى الرغم من كل الصخب الديمقراطي حول "الأممية المتشددة"، فإن الرئيس الديمقراطي بل كلنتون هو أول من عطَّل مفاوضات معاهدة كيوتو حول التغير المناخي، رفض تأييد فكرة محكمة حقوق الإنسان الدولية، رفض توقيع معاهدة حظر الألغام الأرضية، قصف مصنعاً للأسبرين في السودان، هدد جنوب أفريقيا بعقوبات اقتصادية إذا لم تتخل عن خطط استخدام أدوية غير مسجلة لعلاج مرض الإيدز، وأيد روسيا في حربها الهمجية على بلاد الشيشان.

وفيما يخص العواقب بالنسبة إلى باقي العالم، لم يكن ثمة ما يدعو إلى الاختيار والتفضيل فيما بين الخطاب المؤكد للحرب لدى الديمقراطيين الجدد وحزبهم الديمقراطي من ناحية، وبيانات الترويج للحرب والاتجار بها الصادرة عن المحافظين الجدد وأساتذتهم الجمهوريين من ناحية ثانية. فالطرفان، كلاهما، مصران على تبني "دولة الأمن القومي" وغارقان في مستنقعات خدمة مصالح الشركات. وقد ساهم كلاهما وشاركا في عملية تشغيل آلة الإمبراطورية الأمريكية.

لا يعني ذلك أن ليس هناك أي اختلاف بين الحزبين الجمهوري والديمقراطي، في أي من السياستين الداخلية والخارجية، على الرغم من أن ذلك الرأي لم يطلقه غور فيدال إلا مع قدر مميز من السخرية الحصيفة اللاذعة. يقول الرجل إن أمريكا خاضعة لحكم طغمة ذات اسمين: جمهوري وديمقراطي[11]. غير أن التمايز الموجود أقل من أن يستطيع الأمريكيون ملاحظته. فالحزبان، كلاهما، يعوِّلان على، يعكسان ويعرضان مخزون موضوعات ثقافية مطَّردة عبر التاريخ الأمريكي وشديدة الطغيان بما يجعلها قابلة للالتقاط من قبل الأمريكيين، وشديدة التداخل والترابط بما يسمح بظهور صياغات متباينة للخطاب الذي يجري تقديمه دون تبديد الاطِّراد الذي يميز الكل على أصعدة العواقب والآثار خصوصاً في مجال علاقات أمريكا مع باقي العالم. لعل وجود هذه الروح أو النفسية الأمريكية هو الذي يحدث عالماً من الاختلاف بين جمهوري من ناحية وديمقراطي من ناحية مقابلة بالنسبة إلى الأمريكيين، دون أن يكون ثمة أي اختلاف ذي شأن على الإطلاق بالنسبة لمن يراقبون المشهد من الخارج، بالنسبة لمتلقي طريقة الحياة الأمريكية السلبيين. إن موضوعات ومعاني هذا الموروث المشترك هي التي نسعى

إلى معاينتها وكشف النقاب عنها، لأنها الأسس التي استندت إليها جملة المشكلات الناشبة بين أمريكا والعالم. إنه برنامج التغيير الحقيقي، لأن طرقاً مختلفة لرؤية العالم ومشكلاته هي التي نحن بحاجة ماسة إليها كي نصبح قادرين على النقاش.

شاءت انتخابات 2004 الرئاسية أن تقدم خياراً أوضح، خصوصاً من حيث التوجه الكوكبي، مقارنة بأي انتخابات سابقة مازالت في الذاكرة. لسنا معارضين. فلو كنا أمريكيين لشعرنا، في الحقيقة، بنوع من الاضطرار لأن نكون ديمقراطيين من منطلق بصيص الأمل في التغيير. ومع ذلك فإن انتخابات 2004 بدت، عند النظر إليها من زاوية أخرى، مجسدة لأوضح صور طغمة فيدال سبق لها أن كانت. في الزاوية الجمهورية؛ جورج دبليو. بوش: مليونير ابن رئيس جمهورية سابق، مؤسس شركة زاباتا النفطية، أحد خريجي جامعة ييل وعضو جمعية طلابها النخبوية التي تعتمد الجمجمة وعظام الساق شعاراً. وفي الزاوية الديمقراطية؛ جون كيري: مليونير ابن عائلة ماساشوستسية يعود تاريخ انخراطها في العمل السياسي إلى عام 1600، زوج تيريزا هاينتس، وريثة مجمع رُبّ البندورة (الكاتشاب) (زوجه الأولى كانت أيضاً ذات ثراء خرافي)، خريج جامعة ييل وعضو جمعية الجمجمة.

ظلت السياسة وفُرَص الحكم في أمريكا وعلى الدوام حِكْراً على فئة نخبوية ضيقة. تحديداً جرى تصويرها من تلك المنطلقات تحت تأثير ميول مهندسي الدستور الأمريكي، الآباء المؤسِّسين الذين كانوا مسكونين بنوع من الرعب من حكم الرعاع فجاء إيمانهم الديمقراطي راسخ التعويل على من يملكون. وما لبثت الملكية أو الثروة أن أصبحت عنصراً أساسياً من عناصر المشاركة في السياسة الأمريكية. وقد قُدر

أن ثمن الوصول إلى الكونغرس يبلغ مليونين من الدولارات. في أثناء انتخابات الألفين قام جورج بوش بجمع مئة مليون من الدولارات لصندوق حملته. أما في 2004 فقفز هذا الرقم إلى الـ 190 مليوناً الذي لا يُصدق! لابد للمرء من أن يكون غنياً جداً، جداً إذا أراد أن يشارك في لعبة السياسة بأمريكا كما أوضح روس بيرو، ستيفن هفينغتون، ستيف فوربس ومايكل بلومبرغ، بين آخرين، بجلاء كبير عبر تولي مهمة تمويل مغامراتهم السياسية الخاصة. ومما يتضاءل الكلام عنه ويتزايد إخفاؤه أن الذين يجري انتخابهم لشغل المناصب يأتون بنسب متصاعدة جيلاً بعد آخر من صفوف حائزي الثروات الموروثة أو المنقولة. تتمتع في أمريكا اليوم ما لا يزيد عن 13000 أسرة من أغنى الأسر بمداخيل توازي مداخيل عشرين مليوناً من العائلات الأكثر فقراً. ومع حلول عام 1999 كان بل غيتس وحده يملك ثروة توازي ممتلكات نسبة الـ 40 بالمئة الدنيا من الأمريكيين. وفيما يكسب واحد من كل ثلاثة أمريكيين ثمانية دولارات أو أقل في الساعة؛ فإن 40 بالمئة من أطفال أمريكا يعيشون بمستوى الفقر أو دونه. ثمة خرافة شعبية زادها استحداث صندوق الأسر تشويشاً تقول إن الثروة والنبالة المترتبة عليها موكب استعراضي دائم التبدل لجهاز الموظفين الجدد. إن المال العتيق لا ينمو على الشجر، وما يتطلبه الالتحاق بركب الأكثر ثراء إن هو إلا دوّامة صعود متواصلة باطراد.

لابد لروح إشاعة الديمقراطية من أن تكون محظورة لدى الطغمة البلوتوقراطية (المالية الثرية) في أمريكا. غير أن المبدأ الأسري والعائلي الأصيل ظل معتمداً عبر جميع شرائح ومستويات نمط الحكم الأمريكي. بدأ التوجه في وقت مبكر وليس ثمة ما يشير إلى أنه بدأ ينطفئ.

فرئيس أمريكا السادس: جون كوينسي آدامز كان ابن رئيسها الثاني: جون آدامز. يمكن القول أنهما قاما باستحداث هذا التقليد. من المؤكد أن الرئيسين روزفلت وروزفلت كانا ناقلين نبيلين لهذا التقليد. وكذلك فإن نموذج آل كندي ـ رئيس واحد، عضوا مجلس شيوخ ومرشحا رئاسة، أعضاء كونغرس مختلفون وموظفون في الدولة وناشطون سياسيون ـ وآل بوش ـ رئيسان للجمهورية، عضو مجلس شيوخ واحد: والد بوش الأب (أو بوش رقم 41 كما هو معروف)، حاكما ولايات مع عدد كبير من المناصب السياسية الصاعدة ـ يبين أن القالب مازال متيناً وبعيداً عن التعرض للتحطيم. لا شيء ينجح في السياسة الأمريكية مثل الروابط العائلية. كان ذلك صحيحاً بالنسبة إلى آل غور. وهو صحيح بالنسبة إلى ولاية أوهايو المتقلبة انتخابياً، حيث حاكم الولاية روبرت تافت الثالث، هو عميد الأسرة التي شهدت انتخاب اثنين يحملان اسم روبرت تافت لتمثيل الولاية في مجلس شيوخ الولايات المتحدة، والتي تنتمي إلى الرئيس وليم تافت. وفي انديانا المجاورة هناك آل البيه. شغل الأب بيرتش بيه عدداً من درجات المناصب الرسمية المختلفة قبل أن ينتخب عضواً في مجلس الشيوخ ويترشح للرئاسة. خلفه نجله إيفان الذي تولى أيضاً خدمة ولايته، وما لبث أن أصبح حاكم ولاية قبل أن يدخل مجلس الشيوخ، والذي يتكرر الحديث عنه بوصفه رجلاً ذا مستقبل من ذوي أصحاب فرصة الترشح المحتمل لرئاسة الجمهورية.

يتطلب الحفاظ على أي موقع سياسي حديث ما هو أكثر من التمتع بروابط عائلية، إذ يستدعي وجود تمويل ودعم مؤسساتيين من مجمل فيض الأعمال المحترفة ومجموعات المؤيدين من أصحاب المصالح المتوفرة على الأموال اللازمة للإنفاق ثمناً لامتلاك فرص الوصول

والنفوذ. لقد تأسست صناعات أمريكية مفتاحية وتكنولوجيات جديدة بأموال الاستثمارات الحكومية، بميزانيات مشروعات البحث والتطوير أو التنمية، بموارد صناديق الإنفاق العسكري. فالترابط المتشابك أي تبادل الباب الدوار للملاكات فيما بين الجيش، الأعمال والحكومة، يشكل إحدى السمات الجوهرية للمشهد الأمريكي، الديمقراطي والجمهوري. وقد كان قضية كامنة في انتخابات 2004 تجسدت بشخص نائب الرئيس ديك تشيني. فهذا الأخير انتقل من السياسة ـ إذ كان عضو مجلس شيوخ عن ولاية فيومنغ وشغل منصب وزير الدفاع ـ إلى رئاسة مجلس إدارة هليبورتون، أحد مجمعات الصناعات النفطية الكبرى. ولدى عودته إلى السياسة بوصفه أكثر نواب الرئيس الذين سبق لهم أن شغلوا المنصب انخراطاً وحركية أقدم أولاً على تولي الإشراف على عملية مراجعة كبرى لسياسة الطاقة في أمريكا وحين قامت أمريكا بشن الحرب على العراق كان مجمع هليبورتون أحد أكبر المستفيدين من العقود العسكرية وعقود إعادة بناء البنية التحتية العراقية على حد سواء. لم يتم قط استدراج أي عروض تنافسية قبل إبرام هذه العقود. نشب خلاف بين هليبورتون والحكومة حول الأسعار المرتفعة لتوريدات الوقود والمواد الغذائية إلى الجيش. وذلك كله فيما كان المجمع لا يزال مرتبطاً بالتزامات مالية مع نائب الرئيس ديك تشيني الذي بقي أمر بتر علاقته المالية عند عودته إلى الوظيفة معلقاً ومتعثراً خلال فترة زمنية دامت أعواماً.

تبقى أمريكا الشركات طرفاً فاعلاً على المسرح السياسي. وقد غرقت هذه الأمريكا في بحر من الفوضى. فحين انهارت شركة إنْرون النفطية تكبد العمال والمساهمون المتوسطون خسائر قُدرت بما يتراوح

بين 25 و50 مليوناً من الدولارات في صناديق التقاعد؛ أما كبار تنفيذيي الشركة فخرجوا من الورطة مصطحبين مئات ملايين الدولارات. ثمة كانت سلسلة طويلة من الفضائح في شركات أخرى مثل الوورلد كوم، تيوك وكسيروكس، مع عمليات احتيال كبرى طالت أعداداً لا تحصى من مليارات الدولارات. لقد كشفت شركة كوست، وهي رابعة كبرى شركات الهاتف، عن ديون بلغت 26 ملياراً من الدولارات! إن أداء أمريكا الشركات كان ولا يزال جزءاً من الحالة التي يصفها بول كروغمان بـ"اللامساواة اللوبية" التي طالت أمريكا كلها[12]. كان المدير التنفيذي النموذجي للشركة يحصل في 1973 على دخل يوازي أربعين ضعفاً لدخل العامل المتوسط. أما مع حلول عام 2000 فإن هذا التفاوت بات يتراوح بين 190 و419 ضعفاً للمداخيل المتوسطة. وفي الوقت نفسه تعرض دخل الخُمْسَيْن الأخيرين للتدهور الفعلي. وما فتئت نتيجة هذه "الإعادة غير المسبوقة لتوزيع الدخل لمصلحة الأغنياء" أن دفعت جون كاسيدي إلى القول بأن أمريكا لم تعد مجتمع طبقة وسطى، نظراً لأن ما فيها من أشكال للتفاوت في الثروة أكبر من أي دولة صناعية رئيسية أخرى. ويقول ديفد رايف من معهد التخطيط العالمي إن "أمريكا باتت، دون شك، جراء فجوتها المتسعة على مستوى الدخل، تباياناتها المتنامية أفقياً وشاقولياً في كل الأمور بدءاً بالتعليم وانتهاءً بمعدل العمر المتوقع فيما بين الأغنياء والفقراء، أقل ديمقراطية اليوم... مما كانت في 1950"[13].

جاء صعود سلطة الشركات والثروة المركزة مصحوباً بمراحل متعاقبة من تورم الدَّيْن العام. فأرض الوفرة والخير هذه تواجه مشكلة دَيْن عام بالغة القسوة ـ وهي التي أبرزت آرنولد شفارتزنجر في

كاليفورنيا ـ مشكلة ما لبثت أن تمخضت عن سياسة اجتماعية رجعية ونكوصية على نحو همجي. إن الأمة الأغنى على كوكب الأرض بحاجة إلى حقنة يومية تبلغ مليارا ونصف المليار من الدولارات المقترضة من الخارج كي تتمكن من سد عجزها! وسلسلة العجوز المتعاقبة كانت، إلى حد كبير، هي المسؤولة عن الإنفاق العسكري والذريعة المسوغة له، في ظل رونالد ريغان لتمويل التقليصات الضريبية وحملة الاندفاع الأخيرة لكسب الحرب الباردة وفي عهد جورج دبليو. بوش لتمويل التخفيضات الضريبية ومواصلة الحرب على الإرهاب.

في حقيقة الأمر، تبدو أمريكا، بالنسبة إلى غير الأمريكيين، مكاناً شديد الغرابة. إنها تبدو على الدوام وكأنها في حرب ليس فقط مع باقي العالم، بل مع ذاتها. فنظام التعليم فيها مشلول، يتأرجح بعنف بين قطبي الاستقامة السياسية واليمين الديني. ونمط حياتها ذو التوجه الاستهلاكي المفرط ـ هذا النمط الذي تدافع عنه بضراوة بالغة جميع الإدارات الجمهورية والديمقراطية على حد سواء ـ ليس فقط غير قابل للإدامة على نحو خطير، بل هو دائب فعلاً على خنق العالم. أما أقلياتها ـ الزنوج، الآسيون واللاتين ـ فتتعرض للتهميش وتظل بعيدة عن جماعات البيض الممسكة بزمام السيطرة والتحكم. إن الخوف الدائم يتفشى في شوارع مدنها واصلاً إلى مستويات مرضية بعد همجية الحادي عشر من أيلول المرعبة مع بروز مسائل أمن الوطن، قانون المواطن رقم: 1، قانون المواطن رقم: 2، حجز السكان وعملية تي. آي. بي. إس. (TIPS) ـ جهاز رصد الإرهاب ومنعه ـ التي تشجع الأذَنة (الخدم والحجاب)، عمال البناء والمراسلين على التجسس على جيرانهم وتقديم التقارير عن تحركات هؤلاء الجيران. وجنون الشك والارتياب

هذا ليس مشكلة أمريكا فقط. إنه مرض متجذر في عمق القوة الكوكبية المفرطة، ويتعين علينا جميعاً أن نتساءل عن كيفية امتلاك القدرة على إنقاذ الوضع، معالجته، وإعادة تأهيله من أجل بلوغ مستقبل قابل للدوام لخير العالم كله.

لعل شخصية آرنولد شفارتزنجر السينمائية الأشهر هي شخصية الحد الفاصل(*) (The Terminator) ففلم جيمس كاميرون المنتج عام 1984 يعيد رواية قصة بشارة الملاك جبريل لمريم بحبلها بالمسيح في الإنجيل (العهد الجديد). ثمة متمرد من القرن الواحد والعشرين (كبير الملائكة جبريل) يعود زمنياً لينذر نادلةً لوس أنجليسية، سارة كونور (العذراء مريم) بأنها ستكون أم مسيح سياسي سيجلب الخلاص إلى العالم. ولكن ولادة المخلص مشروطة بإنقاذ الأم من السايبورغ Cyborg، نتاج آخر من نتاجات مستقبل يكون فيما بعد حرب نووية معينة، المكلف بمهمة قتلها. يقع كبير الملائكة في حب العذراء فتحمل منه بالمسيح. يقوم آرنولد شفارتزنجر بتمثيل دور الإنسان الآلي (الروبوت) الذي يعود هابطاً من عام 2027 إلى لوس أنجليس سنة 1984 مطارداً عدواً من البشر. يكون الروبوت "نصف إنسان، نصف آلة. تتألف الأحشاء من هيكل معدني استثنائي خاضع للتحكم بجهاز تحكم صغير جداً، مصفح كلياً، شديد الصلابة؛ أما المظهر الخارجي فنجده مؤلفاً من أنسجة بشرية حية، من لحم، من بشرة، من شعر، من دم"، مما يجعله غير قابل للتمييز عن سائر البشر الآخرين. ومع ذلك تكون حتى المواصفات الإنسانية خاضعة لنوع من المنطق السريري البارد: "تتعذر مناقشته،

(*) ترجم عنوان هذا الفلم إلى "الفاني" في سورية و"المصفي" في لبنان، إلا أن المعنى الحرفي هو الحد الفاصل. (المترجم).

يستحيل عقد أي صفقة معه؛ ليس لديه أي إحساس بالرأفة، بالذنب أو بالخوف. وهو لن يتوقف بالمطلق. إلى النهاية. إلى أن تموتوا". وعبر الفلم من أوله إلى آخره يبقى الروبوت (الحد الفاصل) دائباً على مطاردة عدوه بحماسة محمومة، قاتلاً ومدمراً كل ما وكل من يعترض سبيله، مرمماً نفسه من جديد حين تتعرض أجزاء من جسده للإصابة أو التفجير والتمزيق أشلاء. وفي المشهد الختامي المدهش والمذهل، يجري تفجير الحد الفاصل (التيرمينيتور) ونسفه حمماً لاهبة وهباباً. إلا أن هيكله العظمي المعدني يخرج من الرماد ويواصل مهمته. يتعرض الهيكل العظمي هذا هو الآخر للتمزيق أشلاء، غير أن الأجزاء المنفردة المبعثرة لا تلبث أن تعود إلى الحياة لتتابع الانطلاق نحو هدفها.

ليس الهوس الأمريكي إلا نظيراً فكرياً أو تصوراً مفهومياً للحد الفاصل. من الخارج يبدو المجتمع الأمريكي تافهاً تقريباً بعاديته وانتظامه؛ غير أنه من الداخل وفي العمق نجده ميثولوجيا مصنعة دائبة على دفع وتحريك هوسه. وكما هو الحال مع الحد الفاصل، تكون مناقشة أمريكا بالمنطق عسيرة؛ فهي تواصل مطاردة أهدافها العسكرية والتجارية، الحفاظ على نمط حياتها وعملية التوسيع الكوكبية الدائمة لإمبراطوريتها بحماسة محمومة، دائبة على ذبح والتهام كل ما قد يقف في طريقها. ومثل الحد الفاصل، تبدو أمريكا محصنة تماماً ضد الفهم والإقلاع ـ تبقى دائبة فقط على مواصلة تنفيذ أوامر ميثولوجيتها. وتماماً مثلما تكون قصة الحد الفاصل محبوكة حول إحدى الأساطير الدينية، فإن حكاية أمريكا نجدها مكفَّنة بلغة دينية ذات أبعاد توراتية.

تمتد جذور الروح الأمريكية، تلك الروح التي تطبع كل ماله علاقة بأمريكا، إلى أعماق الأسطورة. وما تراث أمريكا الروائي السردي

الأسطوري إلا رؤية خاصة للتاريخ، لآفاق الأمة وللمستقبل. وهذه الميثولوجيا تتشكل بفعل عشرة نواميس تؤلف جزءاً عضوياً من الوعي الأمريكي الذي هو نوع من الموروث الجماعي الذي ينقل الأمة إلى ما بعد الانقسام العميق والمستحكم في السياسة والمجتمع. بعض هذه الأطروحات معبر عنها اجتماعياً وفكرياً في حين أن أخرى مسكوت عنها، غير أنها جميعاً راسخة في الوجدان باقتناع ديني ثابت. جميع قطاعات المجتمع الأمريكي ـ الجمهوريون والديمقراطيون، سائر ظلال المحافظين والليبراليين المختلفة، الأغنياء والفقراء ـ متأثرون بهذه الأطروحات ويتحركون بتوجيهها. فهذه النواميس تفعل فعلها لا عبر ارتداء ثوب النزعة الشعبوية الضبابية السائبة المزركشة بالنجوم، بل من خلال توظيف وتحريك كوكبة من العناوين المقيمة في التاريخ والميثولوجيا الأمريكيين. هاكم، إذن، نواميس الأمريكانا العشرة:

الناموس الأول: الخوف جوهري:

إن "الخوف، الخوف المفرط" هو الشرط الأمريكي. أن تعيش في أمريكا يعني أن تكون مسكوناً بالخوف، بالقلق، وبالخطر؛ أن تكون محاصراً بأشكال محتملة من الأذى، الأعداء والنوايا الخبيثة. فالذئب لم يبارح الباب قط. لعل التمثيل الذاتي الأكثر شيوعياً هو أمة متفائلين. على نحو متكرر تختتم أفلام هوليوود بنوع من الحل، من الإنقاذ، فينطلق المنتصرون على صهوات جيادهم ليغربوا في مغرب الشمس أو يلوذوا بأحضان دافئة تطمئننا إلى أنهم سيعيشون في سعادة بعد ذلك إلى الأبد. وهذه النهاية المنمطة تبقى، على أي حال، ضرورية لأن الحبكة، القصة، مؤسسة على، ومدفوعة بآلة الخوف والقلق، بتلك الآلة الظلامية الأساسية الكامنة في عُمق الشرط الأمريكي. فالخوف بالنسبة إلى

أمريكا شرط أصلي، طبيعي؛ هو الطقس الفطري الإجباري المصاحب للولادة؛ هو الشرط الموروث عن وجود سريع العطب وهش لابد من الدفاع عنه باطراد. ليس ثمة أي أمريكا دونما خوف؛ والتذرع الدائم هو الدافع المحرك الذي يحدد لها طبيعة الأفعال وردود الأفعال.

الناموس الثاني: الهروب سبباً للوجود:

كانت أمريكا فكرة قبل أن تصبح بلداً، وتمت صياغة البلد وفقاً للفكرة. تضافرت آليات النشر، العلاقات العامة والدعاية الهادفة على إبداع فكرة أمريكا. جرى اصطناع أمريكا لتكون طريق هروب من جميع العلل التي عرفتها مجتمعات العالم القديم وأممه. جرى تصورها ملاذاً جنَّد مواطنيه من أمكنة أخرى ـ ملجأ يلوذ به الهاربون من الاضطهاد، من الفقر، من البطالة ومن نقص الفُرص ـ بحثاً عن متنفس، بحثاً عن مكان يتيح لهؤلاء المواطنين الجدد فرصة إعادة خلق أنفسهم وصياغة نمط حياة جديدة متحرر من القيود، الممنوعات والضوابط. إذن، أمريكا مؤسسة على فرضية هروب المرء من نفسه؛ إنها المكان الذي يمكّن المرء من إعادة خلق ذاته وفق صيغة مثالية أكثر جاذبية وصدقاً. وبشكلٍ مكشوف كان هذا جزءاً من منبر آرنولد شفارتزنجر الانتخابي ـ فقد كان الرجل المرشح الأكثر صدقاً في تجسيد الأسطورة الأمريكية، لا بوصفها حلماً بل واقعاً معاشاً. ليست نزعة الهروب إلاّ أمريكا بمعان متعددة تشكلت عبر الرصيد الثقافي للحياة الأمريكية.

الناموس الثالث: الجهل نِعْمة:

لعل الأسطورة الأكبر في عملية أَسْطَرة إمبراطورية أمريكا القومية هي أسطورة الاستثنائية الأمريكية. يزعم الزاعمون أن أمريكا مختلفة. هي مختلفة لأنها خُلقت بوعي لتكون في منأى عن كل ما كان

خطأ في العالم القديم، لتكون بداية جديدة للبشرية في أرض بكر. ليست إيديولوجيا أمريكا سوى مفارقة إرادة الحرية الفردية في أكثر الدول القومية تعصباً. ولأن إيديولوجيتها أبدعت -وحدة مثالية- ذات بنية حكم نموذجية، بوركت أمريكا وحُفظت من سائر أمراض وآلام باقي العالم. يضاف إلى ذلك أن مبادرة مواطنين أحرار في أرض خصبة وشاسعة ملأى بالخيرات جعلت أمريكا أرضاً زاخرة بالفُرَص والثروات بالنسبة إلى الجميع؛ جعلتها الحُلْمَ الأمريكي. والتكرار الدائم لهذه المعزوفة المخترقة للوصف الذاتي الأمريكي والمتجذرة في أعماق الروح الأمريكية يحقق نجاحاً منقطع النظير في التمخض عن عجائب الجهالة ومعجزاتها. ليست أمريكا صادقة لا بشأن تاريخها الخاص ولا فيما يخص باقي العالم. فقوة الإيمان بالاستثنائية الأمريكية لا تلبث أن تصبح منطقاً يسوِّغ الجهل بالعالم الخارجي ويبرر إسقاط ما يمكن للآخرين أن يقولوه عن أمريكا من الحساب. إنها عبقرية الانعزال العظيمة، إنها العلة النهائية للغرق في بحر أمجاد الجهل.

الناموس الرابع: أمريكا هي فكرة الأمة:

الأمة هي محور الحياة الأمريكية. ليست الأمة وعاء الأسطورة فقط، بل هي أداة جوهرية لصناعة الأساطير. أَيْقَنَةُ النزعة القومية طاغية في الحياة الأمريكية. والروح الوطنية، مناشدة النزعة القومية والاعتزاز بالأمة، انعكاسات شائعة يتم التعبير عنها بالسلوك الشخصي، بالأحداث الاجتماعية وبثقافة أمريكا الشعبية. يجري إضفاء القداسة على أيقونات الأمة لأن الأمة نفسها منطوية على مغزى مقدس. بعبارة أخرى: أمريكا متطرفة في تعصبها القومي. ومع ذلك فإن الأمريكيين لن يترددوا، رغم كل تعبيراتهم القومية، في رفض الصفة القومية ـ فالقومية

إيديولوجيا مريبة، خطرة ربما، قابلة للتوظيف من أجل بلوغ أهداف وأغراض لا إنسانية. فالأمريكيون أمريكيون أباة، وليسوا قوميين مسعورين. هذه البقعة السوداء تقع تحديداً لأن مفهوم الأمة متزاوج مع القداسة ومنظور إليه بوصفه باقة من القيم، الحقوق والمميزات المحددة، لا كالتزام بأمة أو دولة. يضاف إلى ذلك أن هذه السلسلة من القيم الأمريكية مفتوحة على سائر الشعوب في كل الأمكنة وينبغي لهذه الشعوب أن تسعى إلى تبنيها. والأمة التي هي أمريكا ملأى بالوصف الذاتي بجملة القيم والمثل التي يتعين عليها أن تنتمي إلى جميع الناس ـ ولذا فإن أمريكا، كأمة، هي مستقبل كل الناس.

الناموس الخامس: إضفاء الديمقراطية على كل شيء هو جوهر أمريكا:

إن إشاعة الديمقراطية هي تمكين الذات الفرد ـ إنها الرسالة التي خُلقت أمريكا لأدائها. ليست البراري الموحشة والتخوم إلا الصفحة البيضاء التي يستطيع كل فرد أن يرسم نفسه عليها. والروايات الأسطورية لأمريكا تتمحور حول الأفراد وجهودهم البناءة أو المدمرة الرامية إلى إعادة خلق أنفسهم. تبقى الحرية الفردية حجر زاوية مشروع أمريكا. ما من جانب من جوانب الحياة إلا ويمكن بل يجب أن يجري إكسابُه الصفة الديمقراطية، من الوجبات السريعة إلى الأزياء الفورية، من قوانين العنف والسلاح إلى حق الاطلاع على الفنون الإباحية. فكرة إشاعة الديمقراطية بالذات تساوي أمريكا في الحقيقة.

الناموس السادس: يحق للديمقراطية الأمريكية أن تكون إمبريالية وأن تعبر عن نفسها بنظام إمبراطوري:

كان شَغْل أمريكا بالبيض من الآنجلو ـ ساكسون مشروعاً

إمبريالياً. وأوائل المستوطنين، نماذج الميثولوجيا وصانعوها، جيشُ الشخصيات في أسطورة الأمة الأمريكية، كانوا وكلاء الإمبريالية وأدواتها، القوة الخلاقة في تشكيل الأمة الأمريكية. حين أقدم الأمريكيون على إعلان استقلالهم، مؤكدين حقوقهم وحرياتهم الديمقراطية في مواجهة الإمبراطورية البريطانية، بادروا إلى ابتداع وهم أسطوري آخر. ما لبثت أمة المواطنين الأحرار أن قامت حقاً بتوسيع أمتهم ودولتهم وتحقيقهما عبر عمليات تخص الإمبراطورية. فعلاقات العاصمة بالأطراف كانت، في حالة أمريكا، جزءاً مما صُنعت منه الأمة المتوسعة. لم تكن أمريكا إلا إمبراطورية داخلية دائبة على هيكلة اقتصاد متطلب لمُدخَلات جديدة من الأرض والثروات المنجمية تكون في خدمة تراكمه الرأسمالي، ولأسواق تقوم بتصريف صناعته. وبعيدة عن أن تكون بؤرة اعتراض نموذجية على المستعمرات والإمبراطوريات، فإن الإمبريالية والإمبراطورية موجودتان في أمريكا من البداية الأولى.

الناموس السابع: السينما قاطرة الإمبراطورية:

كان ميلاد السينما معاصراً للتحركات الإمبريالية الأمريكية الأولى فيما وراء البحار. اضطلعت السينما الأمريكية بدور إمبريالي على الصعيدين الداخلي والخارجي. داخلياً تولت السينما جعل الروايات الأسطورية منظورة وفعالة بالنسبة إلى التدفق الأكبر الذي سبق للأمة أن شهدته لسيول المهاجرين الجدد. نجحت السينما في جعل صورة أمريكا أيقونة. تمكنت من إقحام التراث السردي لأمريكا في أطر قصصية منمطة زاخرة بشخصيات أصيلة. لم تتأخر السينما في استيعاب تقاليد الثقافة الجماهيرية الأمريكية وصيغها، وفي توفير البيئة المثالية المطلوبة لإضفاء الصفة الرسمية على الطبيعة الجماهيرية

لثقافة أمريكا. فمشروع أمريكا، مفهوم أن أمريكا فكرة أمة (الناموس الرابع) جرى تكريسه وإبرازه في السينما. وهذا المنتوج القياسي، المنمط، المصنع والمفبرك ما لبث أن أصبح أعظم مواد التصدير الأمريكية، حيث جرى تقديم فكرة الذات إلى العالم، وتم من خلالها أَبْلَسَةُ الثقافات الأخرى. استيعابها فإلحاقها بالركب.

الناموس الثامن: الشهرة هي عملة الإمبراطورية الدارجة:

أساس النجومية والشهرة هو النشر، وسُبُلُه اقتناص انتباه الجمهور والإمساك به. وقدرة نجوم أمريكا على التحكم باهتمام العالم كله هي قاعدة إمبراطورية شيدت على التجارة ومن أجلها. إن التقنيات التي تصنع النجوم هي التقنيات ذاتها المستخدمة لترويج السلطة السياسية وإدامتها. يقوم النجوم بتجسيد قيم وأفكار يجري عكسها على الكرة الأرضية فتساعد على تعزيز نفوذ الإمبراطورية ـ تُبَثُّ حفلات توزيع جوائز الأوسكار سنوياً على المستوى العالمي. إنها أكثر من أحد أكثر البرامج التلفزيونية رواجاً وشعبية. إنها مناسبة طقسية جماعية يتم فيها تحويل التكريم إلى قاطرة للإمبراطورية (الناموس السابع). ليست طقوس مهرجانات الأوسكار إلا استعراضاً لسلطة وهيمنة كوكبيتين سيوفر حشداً من العناوين، من زوايا الصحف ومن المكافآت الاقتصادية حول العالم على امتداد العام القادم.

الناموس التاسع: الحرب ضرورة:

تدعي أمريكا أنها قلعة للسلام، ملاذ للديمقراطية والوئام. إلا أن الواقع مختلف جذرياً عن التصور الذاتي. انبثقت أمريكا من حرب معينة، توحَّدَتْ وبَنَت صَرْحَ الأمة والدولة عبر الحرب، توسعت وبرزت بوصفها إمبراطورية من خلال الحرب، وهي الآن تصون هيمنتها

الكوكبية عن طريق الحرب. منذ الحادي عشر من أيلول وهي دائبة على خوض الحرب ضد أكثر من نصف دول العالم. اقتصادها اقتصاد حرب. علومها وتكنولوجياتها ذات جذور عميقة في تربة الآلة العسكرية. تدعم وتدير الآلة العسكرية الأكثر ضخامة وهولاً في التاريخ. إن صور الحرب ومجازاتها تملأ كل مناحي المجتمع والثقافة الأمريكيين ـ نجدها في الأفلام، في البرامج التلفزيونية، في ألعاب الفيديو، في الأزياء، في ألعاب الأطفال، في البرامج الاجتماعية وفي الخطاب السياسي. ثمة تحالف يضم أساتذة الإيديولوجيا من المحافظين الجدد، يمينيي شعار حرية التجارة والمسيحيين الإنجيليين، دائب الآن على خوض حرب ضد العقْد الاجتماعي، ضد فقراء قلب المدينة، ضد أنصار حرية الإجهاض، ضد المثليين، ضد أجهزة الحكم المتضخمة وضد الفصل الدستوري بين الدين والدولة، بين المنطق العلماني والإيمان الديني. وتتويجاً لذلك كله لدينا مفهوم الحرب الوقائية، الاستباقية، ترجمة مبدأ مونرو العائد إلى أوائل القرن التاسع عشر والمؤكِّد لحق أمريكا في الهيمنة الآمنة المضمونة في نصف الكرة الأرضية الغربي إلى خطة أو سياسة محافظين جدد تقضي بالسيطرة على كوكب الأرض بنصفيه الغربي والشرقي. بالنسبة إلى أمريكا تبقى الحرب ضرورة، لأنها باتت علة وجودها.

الناموس العاشر: التراث والتاريخ الأمريكيان روايتان كونيتان قابلتان للتطبيق عبر الأزمان والأمكنة كلها:

تتضافر النواميس من الأول إلى التاسع لتقدم إطاراً معمارياً ورواية أسطورية لفكرة أمريكا. غير أن أمريكا تنظر إلى هذه الميثولوجيا ونواميسها لا على أنها تصورات محلية، إقليمية بل بوصفها رواية كونية

شاملة. فالهيمنة الكوكبية ما لبثت الآن أن باتت مرادفة لعملية تصدير التاريخ والتراث الأمريكيين اللذين يمكن تطبيقهما وفرضهما على الجميع، في الأمكنة كلها، في أي وقت. إنهما مجموعتا قيم كونية شاملة آخر المطاف.

تقوم هذه النواميس، مجتمعة، بتحديد طبيعة الحلم الأمريكي؛ تفسر كيف ولماذا تتصرف أمريكا كما تفعل، فأصبحت كابوساً كوكبياً. ونواميس الأمريكانا لا تتحدد بانتخاب واحد ـ فهي ناشطة في الانتخابات كلها، قابلة للتطبيق على السياسة الداخلية الأمريكية، على السياسة الخارجية وعلى السلطة الثقافية عموماً. وهذه النواميس باتت الآن، بعد أن أصبحت القوة العظمى المفرطة الوحيدة، مؤثرة في كل مواطن لأي بلد. إذا كانت مناقشة هذا المسار الناشئ للشؤون الأمريكية، مقاربتها أو بحثها أموراً مطلوبة، فإن من الواجب تسليط الأضواء عليه وتحليله أولاً.

سنعمل في هذا الكتاب على التوسع في الكلام عن النواميس العشرة للمثيولوجيا الأمريكية، على تعقب جذورها وسياقاتها التاريخية وعلى استكشاف طرائق صياغتها لكل من السياسة، المجتمع والثقافة في أمريكا المعاصرة. إن فكرة أمريكا تدخل في تنشئة أي مواطن غير أمريكي في سن معينة. فكل من راكم أعواماً ووعياً مع صعود تكنولوجيات الاتصالات كبر مع أمريكا عبر مجرد مشاهدة التلفزيون. إلا أن تميزنا عن أمريكيين في سن مشابهة استثنائي الأهمية. فنحن لم نَنْمُ ونكبر فقط مع وعبر الثقافة الشعبية الجماهيرية الأمريكية؛ بل مخلوقات أقله ثنائية الثقافة، حائزة على، ووارثة لما هو أكثر بكثير من

الأمريكانا (جملة مفردات التراث الأمريكي). وهذا الوعي هو الذي نطرحه للنقاش. فالروح والبطولات الأمريكية تخصنا ولا تخصنا. نشأنا مع حزمة داخلية من التناقضات والجدل اللذين نقوم الآن بتجسيدهما لأننا نستطيع، خلافاً للأمريكيين، خلق المسافة الذهنية اللازمة لرؤية الروابط القائمة بين الأفكار المتجذرة العميقة للثقافة الشعبية الجماهيرية وقبضتها الخانقة التي تشل حركة المجتمع الأمريكي، في المجتمع الأمريكي كما في باقي العالم.

ما يهم فيما يخص أمريكا هو الأسلوب الذي تتبعه الأصناف المختلفة من مفارقاتها الخاصة وتنوعها الظاهري، أو أقله ثنائيتها، على صعيد الآراء والأفكار، من أجل الاهتداء إلى مكان مريح في مثيولوجيتها وصولاً إلى الذوبان في بوتقة واحدة لخلق نظرة كونية شمولية موحدة. فالتمثيل المركزي للأمة بوصفها حزمة قيم يدخل العالم كله في نطاق السيطرة الأمريكية ودائرتها الملائمة. فتاريخ الإنسان كله يقود إلى أمريكا أو أمريكا تقود إلى المستقبل الإنساني لمصلحة الجميع. تظل النواميس التي تتحدث عنها، كل منها بفرادته وتشعباته، دائبة على تعزيز وتوسيع احتمالات قيام الإمبراطورية مع الإصرار على رفض النزعة القومية، النزعة العسكرية وممارسة أمريكا الإمبريالية ـ بما يُبقي الجمهور الأمريكي قادراً على الاستمتاع بانعزاليته وبشعور البراءة الكلية، مؤمناً بأن دولته قوة في خدمة الخير، قوة لا تقدم إلا على ممارسة الأعمال الخيرية الصالحة وصولاً إلى بلوغ أهداف رافعة للرأس، أعمال تجعل الحلم الأمريكي في متناول الناس في كل مكان. وهذه النواميس تجيد إتقان عملها إلى درجة أن الأمريكيين يتعرضون ليس فقط للتجهيل، بل ويخضعون لآيات الإلهاء، الإرباك والثني عن المعرفة؛ إذ

يجري في كل الأمكنة حرفه عن طريق العمل على اقتراح نوع من البحث والنقاش اللذين يحاكمان أمور الواقع بطريقة مغايرة.

لمبادئ الأمريكانا (الميثولوجيا الأمريكية) العشرة، بوصفها نواميس أو قوانين، طبقات معنى متعددة ومجالات قابلية تطبيق متنوعة. وإلا، فما الذي جعلها كوكبة من النواميس؟

obeikandl.com